الشخصية الأسطورية مصدرا تراثيا للخطاب الساخر (زرقاء اليمامة)

د . بلمبروك فتيحة

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليابس–سيدي بلعباس

لطالما تداول العرب أمثالا كـ: "أحكم من الزرقاء"، و"أبصر من الزرقاء"، فارتبط وجود هذه الشخصية بصوت الحكمة والبصيرة، ممّا جعلها تحظى بنصيب وافر من الاستدعاء "حيث وُظّفت في أكثر من قصيدة، والدلالة الأساسية التي حملتها زرقاء اليمامة في شعرنا المعاصر هي القدرة على التنبؤ واكتشاف الخطر قبل وقوعه والتنبيه إليه وتحمّل نتيجة إهمال الآخرين وعدم إصغائهم إلى التحذير"[1] فما كان توظيف شخصية زرقاء اليمامة في الخطاب الشعري المعاصر لحاجة فنيّة (بغرض تكثيف وجود الرموز والأساطير) فحسب؛ بل جثم مرمى آخر هذه محاولة لاستكشافه مع خطاب "زرقاء اليمامة" للشاعر مازن دويكات.

يقول الشاعر متذمّرا متململا بلسان الزرقاء[2]:

ليس مهمّا أن تُبصر

في وادي العميان

وترى شجرا يخرج مشيا

من أبواب البستان

وتقول بأعلى الصوت:

هناك خديعة

تمشي، وخُطاها فوق الرمل سريعة

بدأ الخطاب من قصة زرقاء اليمامة – يُزعم أنّها حدثت في زمن مضى– يقال: " إن اسمها عنز, وهي من بني جديس, من أهل اليمامة, كانت حادة البصر وذكروا من أخبارها أن حسان بن تبع الحميري غزا جديس فحذرت قومها وأنذرتهم بوصول جيشه فلم يصدقوها, فاجتاحهم عدوهم "[3]هذه الشخصية التي كذّبها قومها، واتهموها بالخبل والجنون لما صرخت[4]:

خُذُوا حِذَارَكُمْ يَا قَوْمُ يَنْفَعُكُمْ

فَلَيْسَ مَا قَدْ أَرَى بِالأَمْسِ يُحْتَقَرُ

إِنِّي أَرَى شَجَرًا مِن خَلْفِهَا بَشَرُ

وَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الأَشجَارُ والبَشَرُ؟

ثوروا بأجمعكم في وجه أولهم

...فإن ذلك منكم فاعملوا ظفر

ضموا طوائفكم من قبل داهيةٍ

من الأمور التي تخشى وتنتظر

فقد زجرت سنيح القوم باكرة

لو كان يعلم ذاك القوم إذ بكروا

إني أرى رجلاً في كفه كتف

أو يخصف النعل خصفاً ليس يعتسر

فغوروا كل ماء قبل ثالثةٍ

فليس من بعده ورد ولا صدر

وعاجلوا القوم عند الليل إذ رقدوا

ولا تخافوا لهم حرباً وأن كثروا

لم تُجدِ كلّ تحذيراتها نفعا مع قوم لا يصلح معهم التحذير، فقد انغمسوا في اللهو واللعب، ولات حين مناص من غفوتهم.لذلك آثر مازن دويكات أن يوحّد صوته وزرقاءَ اليمامة مما أفرز تناصا واعيا؛ هدفه المزج بين الرؤى، وكلّ ينوي من خطابه بثّ رسالة جادّة لقومه.والمتصفح للمقطع الأول من خطاب الشاعر يلمح خطابا يائسا تُسيقه إليه جملة: "ليس مهمّا أن تبصر في وادي العميان"، سيّان العمى والإبصار لا فرق لدى زرقاء اليمامة، وتأتي الجملة الثانية معطوفة على الأولى "وترى شجرا يخرج مشيا" هذا الأمر ليس مهمّا أيضا، وليس مهمّا أيضا أن "تقول بأعلى الصوت: هناك خديعة/ تمشي وخُطاها فوق الرمل سريعة" هذا الصوت الذي انبثق من فِيه عرّافة لم يعد معترفا به،ولو أنّ الناس قديما كانوا يُصدّقون الكهنة والعرّافين، لكن قوم الزرقاء عموا وصمّوا، وغير مُجدٍ معهم الصراخ، ولم يعد يُذكر عندهم غير الصمت[5].

صمتا..صمتا..صمتْ

ما أنتِ سوى بنت يمامة

حتّى لو كنّا في زمن الطوفان

فالغصن يجيء به منقار حمامة

كيف سيمشي شجر

كلّ الأشجار تموت : كلّ الأعناق المحنية لنا أن نتصورعمق المفارقة بين هاتين الصورتين.

في زمن فيه تحجّر، حتّى الإنساندلف الآن صوت آخر يتزيّا بسخرية شنيعة، يبدو فيه التقريع للزرقاء متّضحا، إنّها تُدعى للصمت والكفّ عن تنبيه قومها، فمن هي؟ وما الذي يمكنها فعله؟، لا يمكنها أن تأتي بالسلام لقومها، كديْدن الحمامة التي حملت غصنا بمنقارها تبشيرا بأنّ الطوفان انتهى[6]، ولولا ذلك لَلَبِث أهل السفينة هناك وجلين، وما يريد قوله الخطاب أيضا: أنّ في زمن الطوفان بعث سيّدنا نوح حمامة حتّى تأتيه باليقين، ولم يُرسل إنسانا وهُنا تتبدّى المفارقة الحادّة بأوجه عدّة:

حمامة تبشّر القوم في زمن الطوفان ≠ وزمن تحجّر فيه الإنسان

حمامة تخدم الإنسان ≠ إنسان يخذل نفسه

غصن يحمل بشارة (غصن الحمامة) ≠ غصن يحمل خديعة، عدوّ الزرقاء.

غصن هو إيذان بالحياة ≠ غصن هو إيذان بالموت

فتحجّر الإنسان هو ضالّة الشاعر التي يريد الحديث عنها، وهي بؤرة ذات إشعاع تكويني لبنى دلالية فجّرت الكوامن الساخرة للخطاب.

قُدّر للشاعر بالمتناقضات المتناثرة في أرجاء القصيدة أن يسترفد رمز زرقاء اليمامة وما لديها من رؤية خاصة بالأشياء البعيدة، ويحوّله بفعل الوعي الشعري المعاصر إلى رؤيا للواقع والوضع الراهن، ويقدّم للبشرية ما يجب أن تتجنّبه حتى لا يقع الوبال عليها.فليس ما تناقلته الأخبار عن الزرقاء – بحدّ عينه– ممّا يمكن تكرُّرُه في كل عصر؛ وإنّما نموذج لا يريده الشعراء واردا في الحياة، فالاستبداد بآراء الآخرين –ممن لهم بعد نظر، واستبعادها ما هو سوى تهميش ومواراة للنصيحة، ودحض لصوت الحق.جعل هذا التداخل بين الأسطورة والحقيقة رمز الزرقاء يتأرجح بين الخيال والواقع، فقاست هذه الشخصية الإهمال واللامبالاة، لتصبح طَرَفًا لمفارقة كبرى، وشكّلت نهايتها نتيجة مضمونة لتخاذل الإنسان وهوانه وتكذيبه للنصيحة:

أكّد هذا التجميع المشهدي للأحداث في جسد النص على وجود أنواع ابداعية فنيّة أخرى تداخلت ونص الشاعر من خلال تقنية السرد، وقد شكّلت المراوحة بين الضمائر ظاهرة جليّة في النص، فتارة يمثُل ضمير المخاطَب "أنتَ" وهذا ما بدا في المقطع الأول: (أن تُبصرَ– ترى– تقول)، والمخاطب "أنتِ" في المقطع الثاني: (صمتا– ما أنتِ)؛ مما يجعل المتلقي يحسّ بأنّه جزء من الخِطاب وطرفا بالغ الأهمية في الرسالة المتوخى إيصالها من لدن السارد، بخلاف ضمير المتكلّم "أنا" الذي ظهر في المقطع الثالث: (قولي– رؤاي– وأنا– في عيني– أراهم– أُصغي– أخبرني– ألمح...) وفيه يشعر المتلقي بالهُوة والفجوة بينه وبين السارد، وبأنّ الكلام لا يعنيه مباشرة[7].

خلق هذا الالتفات من ضمير لآخر مشاهد متنوعة، فصار على المونتاج (والذي يعد أهم تقنية في الفن السينمائي) اقتناص أهم المقاطِع إثارة، وترتيبها وفق الشكل الذي يضمن شدَّ انتباه المتلقي.فالاسترجاع التاريخي لأحداث سابقة من قصة زرقاء اليمامة (سواء أكانت حقيقة أم صنع خيال) ما هي إلا استردادات وصلت الحاضر بالماضي وبيّنت وجود حبل وثيق بينهما يصعب متْرُه، ولعلّ اللجوء إليها سببه خدمة القضية القومية الراهنة، بكل تمزّقاتها، فشخصية الزرقاء ما هي إلا تعبير عن واقع مهترئ، تحطّمت فيه الرؤى، وساده الخداع، وهكذا امتصّ الشاعر أقوى دلالات الغضب والجرح من عيني زرقاء اليمامة، وبثّها في جسد الخطاب ليصبح رسالة صريحة تحيل إلى كمّ الوجع الذي ينخر الوجود العربي.

فلا يفوت القارئ لخطاب زرقاء اليمامة إغفال الأدوات الفنيّة التي وظّفها الشاعر، واستدعاها من أجناس أخرى وصهرها في خطابه، حتى أنّثت فضاء يسوده التواؤم بين البنى، فاستعانة المخاطِبِ بالموروث الأدبي والتاريخي، وبالأسطورة والدراما، والسرد، والحوار، وتعدّد الأصوات يُتيح للقارئ فرصة لقاء بما كان يستحيل اجتماعه في مخيلته.

صارت كلّ هذه الأدوات بيادق يُحرّكها الشاعر كيف شاء، وأقنعة يتّحد فيه الشعور باللاشعور"وتتآلف لغة الصورة التي تخاطب العين مع النبرة التي تخاطب السمع ووتتوازى التضمينات الشعرية القديمة مع الإشارات السياسية المعاصرة، ويتقابل الموقف السياسي الذي يسعى إلى تأكيد حق المواطن العربي في صياغة مصيره مع صوت الشاعر"[8] هي مواقف ساندت خطاب الشاعر الساخر، وعمّقت محتوى رسالته، وأبَت شخصية زرقاء اليمامة إلا أن تكون شاهدا على عصر ما أشبه فيه اليومَ بالبارحة.

الهوامش:

1. علي عشري زايد،استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر،ص.ص 179-180.

2. مازن دويكات، وسائدحجرية، شعر، منشورات لوغاريت الثقافي للنشر والترجمة،رام الله،فلسطين، ط2، 2004، ص73.

زرقاء الْيَمَامَة البسو سجَارة جساسب نمرّة بنذه لبنشَيبَان وَلها كَانَت النَّاقة الَّتِي قتل من أجلهَا كُلَيْب بن وَائِل وَهَاث ارتالحَرْبَينبكر بن وَائِل وتغلب الَّتِيُقَال لَهَاحَرْ بالبسوسوَأ مقرفة امْرَأَة مَالك بن حُذَيْفَة بن بدرالفزاربوَكَانَيغلقفبَيتهَاخَمْسُونَ سَيْفا كلسيف مِنْهَا لذمحرملَهَاودغة امْرَأَة من عجل بن لجيمتزوجتفى بن بالعنبر بن عَمْروبن تَمِيمو زرقاء بن تنمير امْرَأَة كَانَت تبصرالشعرة الْبَيْضَاء فى اللَّبن وَ تنظرالرَّاكِب على مسيرَة ثَلَاثَة أَيَّام وَكَانَت تنذرقَومهَا الجيوش إذا غزتهم فَلَا يَأْتِيهم جَيش إِلَّا وَقد اسْتَعدوا لَهُ حَتَّاحتا للَهَا بعض منغزاهم فَأمر اصحابه فَقطعُوا شَجرا أمسكوه أَمَامهبِ أَيْدِيهِم وَنظرت الزَّرْقَاء فَقَالَت إنأرى الشّجر قد أقبل إِلَيْكُم قَالُوا قد ورقع قلك وَذهب بَصرك فكذبوها وصبحتهما لْخَيلوأغارتعَلَيْهِم وَقتلت الزَّرْقَاء قَالَ فقورواعينيها قدغرقت فى الإثم دم نكَثْرَة مَا كَانَت تكتحلبِهِ.

3. ابن عبد ربه الأندلسي، طبائع النساء وماجاء فيها من عجائب وأخباروأسرار، مكتبة القرآن، القاهرة،مصر، د.ط،د.ت،ص.ص242-243.

4. بشير يموت البيروتي، شاعرات العربفي الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت،لبنان، ط1، 1934، ص74.

5. مازن دويكات، وسائد حجرية،ص73.

يُقال إن نوحا عليه السلام لما كان في السفينة – بعد الطوفان الذي حلّب القرية- بعث الغراب ليكشف له هل ظهر من الأرض موضع، فوقع على جيفة فلم يرجع إليه. فبعث بالحمامة فاستعجلت على نوحا لطوق الذي في عنقها فجُعل لها ذلك جعلا.

6. ينظر،محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب، "عن الجاهلية ودلالاتها"، دار الفارابي، بيروت، لبنان،ط1، 1994، ص302.

7. ينظر،عيسى عبد الشافي إبراهيم المصري،الشعري والنثري في (نص) محمود درويش، "قراءة في إشكالية النوع الأدبي"، كتاب تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمرالنقد الدولي الثاني عشر،عالم الكتب الحديث للنشر،الأردن،ط1، 2009، 1098/1.

جابر عصفور،عوالم شعرية معاصرة، "صلاح عبدالصبور- أمل دنقل- محمود درويش"، (سلسلة كتاب العربي 88)، وزارةالإعلام، الكويت،ط1، 2012،ص 158